الفصل الثاني

النقد في عصر صدر الاسلام

دراسة حالة النقد في عصر صدر الاسلام تقتضي منا الوقوف على ثلاثة مسائل مهمة تحدد وتوضح حالة الشعر في هذه الفترة والاراء النقدية التي صاحبتها . كما ان دراسة الواقع العربي بعد ظهور الاسلام وانتشاره في الجزيرة العربية يطلعنا على التطور الكبير الذي شهدته الحياة انذاك بكل مظاهرها . فقد شهد العرب نقلة كبيرة اخذت بأيديهم من الواقع الاقليمي المتناحر الى الافاق الرحبة السامقة تحت راية الدين الواحد . والعقيدة الواحدة . وقد ترك هذا التطور اثره الكبير في نفوس العرب افرادا وجماعات بوصفهم حملة الرسالة الاسلامية واصطبغت حياتهم بمبادىء الاسلام . واذا كانت هذه المبادىء قد هذبت حياة الافراد وسلوكهم . فأنها وجهت افكارهم وابداعاتهم . والشعر واحد من اهم اوجه الابداع الذي فتنت به العرب وتناشدته في حلها وترحالها . ومجالسها ومسامراتها .

والبحث عن حالة النقد في هذه الفترة يقتضي منا الوقوف عند مفهوم الشعر في الاسلام وفي القرآن الكريم . والحديث النبوي الشريف من الناحية النظرية . ودراسة الواقع الشعري من الناحية العملية .

مفهوم الشعر :

اما مفهوم الشعر ونظرة الاسلام اليه فتبدأ من الايات القرآنية الكريمة . وتكملها الاحاديث النبوية الشريفة .

نقرأ في القرآن الكريم دفاعاً عن الرسول (ص) وصونا لدعوته ونبوته وتبرئتهما من التهم التي تخبط المشركون في تخيلها وصوغها . فقد خيل اليهم عنادهم وكفرهم ان ما يسمعونه من أي الذكر الحكيم ليس وحيا يوحى وانما هو ضرب مما يعرفونه في حياتهم آنذاك . فتارة يتهمون الرسول (ص) بأنه كاهن (١) . واخرى شاعر (٢) . وثالثة يصفون كلام الله ـ جل وتعالى ـ بأنه السحر (٣) . فجاءت الايات الكريمة معلنة ان ماينطق به الرسول (ص) وحي يوحى . وهو كلام الله سبحانه وتعالى وقرآنه على لسان نبيه المصطفى . وليس شيئا مما عرفته العرب من كلام الكهان او السحرة او الشعراء . (وما علمناه الشعر وما ينبغي له . ان هو الا ذكر وقرآن مبين) (وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون) (بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر)(٤)

ولا يمكن ان يفهم من هذه الايات الكريمات حط من شأن الشعر والشعراء او نظرة فيها احتقار او سخرية لكونها قد نزهت الرسالة السماوية ان تكون نمطاً من الابداع البشري . وما الابداع الذي يبهر العرب انذاك الا شعر الشعراء . وطلاسم السحرة والكهان لان تنزيه الرسول (ص) عن الشعر توكيد لحقيقة الرسالة السماوية التي جاء بها . وليس فيها حط من شأن الشعر والشعراء . وقد تبنى ابن رشيق مثل هذا الموقف حين قال مبيناً عدم حط الايات القرآنية من مكانة الشعر والشعراء قائلاً (ولو ان كون النبي صلى الله عليه وسلم غير شاعر غض من الشعر لكانت اميته غضاً من الكتابة(٥)

وقد نفى الله سبحانه وتعالى كون النبي عارفاً للكتابة لئلا يتهم بقراءة كتب الاولين ولتثبيت حقيقة النبوة وكونها وحياً يوحى .

---

١ . سورة الطور / ٢٩ . سورة الحاقة / ٤٢
٢ . سورة الانبياء / ٥ . الصافات / ٣٦ . الطور / ٣٠ . الحاقة / ٤١
٣ . سورة يونس / ٧٦ .

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون(٦)

وعقد السيوطي مقارنة بين الشعر والموسيقى . وانهما يتفقان بالايقاع . فاما كان الشعر ذا ميزان يناسب الايقاع . والايقاع ضرب من الملاهي لم يصلح ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم(٧)

وقد حاول بعض الباحثين ان يعلل سبب تنزيه الرسول (ص) عن الشعر فرأى ان الشعراء معروفون منذ القدم بالغلو والكذب في تجاوزهم الحق في المديح او في استخدامهم القول اللاذع في الهجاء . وانهم منذ القديم يتعرضون لاعراض الناس وحرماتهم وذلك او بعض ذلك لايليق بالرسول (ص)(٨) .

ولم يكن الشعراء جميعاً بمثل هذه الصورة المقيتة لينزه عنها الرسول (ص) فللشعر مكانته الكبيرة عند العرب . وللشعراء اهميتهم في القبائل . وما كان جميع الشعراء مادحين مبالغين او هجائين مفحشين . ولكننا نرى ان تنزيه الايات الكريمة الرسول (ص) عن الشعر متأت من ادعاء الشعراء انفسهم بامور غيبية تلهمهم الشعر . كما ادعى الكهان والسحرة ذلك . والشعراء يدعون ان لهم شياطين يوحون اليهم بالشعر مثلما ادعى الكهان ان لكل منهم رئيساً يلهمه الحكم والرأي اذا احتكمت اليه العرب . ومثلما يدعي السحرة بملازمة الارواح والجن لهم . فتنزيه الله سبحانه وتعالى عن ان يكون الرسول (ص) شاعراً مثل تنزيهه تعالى للرسول (ص) من ان يكون ساحراً او كاهناً . فالقرآن الكريم كلام الله انزله على النبي (ص) وهو لايشبه اي ضرب من ضروب الابداع (ان هو الاوحي يوحى)(٩) .

اما قوله تعالى ، (والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تر انهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين امنوا وعملوا الصالحات . وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا . وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون(١٠) .

هذه الايات الكريمة فيها رفع لمكانة الشعراء المسلمين قدر ما فيها حط وسخرية من شعراء المشركين الذين لم يلتزموا بمبادئ الحق . والاية هنا لم

---

(٦) سورة العنكبوت / ٤٨
(٧) المزهر ٢ / ٢٩١ . وانظر الاسلام والشعر . يحيى الجبوري ص ٤٢
(٨) الاسلام والشعراء . ٤٢

99% 4:56 م ASIACELL
تم 2 من 28

تتحدث عن الشعر بمفهومه العام. انما قسمت الشعراء الى فئتين. الاولى فئة الكافرين والمنافقين ومن يسير على منوالهم والاخرى فئة المؤمنين الذين التزموا بمباديء الاسلام بسلوكهم وتفكيرهم وطرائق تعبيرهم فهؤلاء ثوابهم الجنة لانهم قرنوا القول بالعمل. وحالهم كحال المؤمنين الذين وصفتهم الآيات الكريمة بانهم يؤمنون بالله واليوم الاخر. فهي تدعو الشعراء الى اقتران اقوالهم الشعرية بسلوكهم الاسلامي الملتزم. وهذا اول توجيه نلمحه في تأريخ النقد الادبي عند العرب يطالب به الشاعر بسلوك ملتزم بمباديء الخير. ومتصف بالخلق القويم ويعد بالثواب والجنة. اما الاخرون من الشعراء الذين لاراي لهم ولا موقفاً معيناً. يحكم تصرفاتهم وسلوكهم فاولئك من الغاوين الذين يهيمون على غير هدى ولا عقيدة توجه سلوكهم واشعارهم ولا مباديء يخدمون بها الخير والحق.

لقد فهم المفسرون الاوائل ان المقصود من هذه الايات ليس الشعراء عامة وانما هم الذين يذهبون كالهائم على وجهه من غير قصد حائراً عن الحق وطريق الرشاد وقصد السبيل فهم يقولون مالا يفعلون بينما استثنت الايات الكريمة الشعراء الذين يذكرون الله كثيراً وينتصرون من هجائهم من المشركين(١٢).

وسنجد دعوة القرآن الكريم هذه التي دعا فيها الى التزام الشعراء جانب الخير والحق. يؤكدها الرسول (ص) في اقواله وتوجيهاته العملية للشعر والشعراء وتخط سبيلها في مسيرة النقد عبر العصور التأريخية وتسير جنباً الى جنب مع الاتجاهات النقدية الاخرى التي ستستجد وتظهر في النقد الادبي.

اما الحديث النبوي الشريف الذي يعد المرجع الثاني بعد القران الكريم فنجد فيه اقوالاً للرسول (ص) تسير في اطار مفهوم الايات القرآنية الكريمة السابقة للشعر والشعراء وتصنيفهم صنفين، خير ملتزم بالدين الجديد. ومنحرف لايقدم فائدة ادبية او اخلاقية.

واذا كان بعضهم قد فهم ظاهرة الايات القرآنية الكريمة او قرأها مبتورة واستنتج منها موقفا متعنتا من الشعر والشعراء(١٣) فان الاحاديث النبوية الكريمة قد تحمل على ظاهرة معانيها ويساء تفسيرها ايضا مما يقتضي المناقشة والتحليل.

---

(١١) مجاز القرآن ٢ / ٩١. جامع البيان (تفسير الطبري) ٢٩ / ١٢٧ ـ ١٣٠ الكشاف ٣ / ٢٤٣.

(١٢) راجع على سبيل المثال. تاريخ الادب العربي. بروكلمان ١ / ٣٦. تأريخ الشعر العربي البهبيتي ١١٣. ١١٤. شعر المخضرمين. الجبوري ٩٥. الشاعر الاسلامي تحت نظام سلطة الخلافة. داود سلوم ١٠. شعر العقيدة / ٤٠. مقالات في تاريخ النقد داود سلوم ٣٨. الشعر العربي بين الجمود والتطور الكفراوي ٣٩.

99% 4:56 م ASIACELL
تم 2 من 28

روى عن الرسول (ص) : (لئن يمتلىء جوف احدكم قيحا حتى يريه خير له من ان يمتلىء شعرا)(١٣)

وقد يفهم من هذا الحديث موقف غير مشجع للشعر والشعراء . الا ان مراجعته في كتب الصحاح تطلعنا على الظرف الذي قيل فيه . وقد ذكره البخاري في باب الادب فيما يكره ان يكون الغالب على الانسان الشعر حتى يصرفه عن ذكر الله(١٤) وذكر الامام احمد ان شاعرا عرض للرسول (ص) فوصفه الرسول (ص) بالشيطان ثم قال الحديث(١٥)

هذا التعليق البسيط يدلنا على ان قول الرسول (ص) السابق لم يكن مطلقا على جميع الشعراء وأنما هو خاص بنوع معين منهم ولابد ان يكون الشاعر الذي عرض له قد انشده شعرا يخالف مبادىء الاسلام وقيمه . وقد فهم المتأخرون ان وصف الرسول (ص) الشعر بالقبح ليس عاما فذكروا بأنه (على من غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه واقامة فروضه ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن)(١٦)

اما اذا صحت تتمة الحديث على انها (لئن يمتلىء جوف احدكم قيحا حتى يريه خير له من ان يمتلىء قيل فهي هجائي) فأن هذه التتمة تدرج الحديث مع الاية الكريمة (والشعراء ...) ولاتحتاج فيه الى تأويل او تعمق في التفكير . فالنهي يكون منصبا على الشعر الذي قيل في هجاء الرسول (ص) والذي هو بحد ذاته هجاء للاسلام والمسلمين ومجاهر بالعداء للدعوة الاسلامية وقيمها الخيرة وهذا ما اندرج في الاية الكريمة ضمن شعر الشعراء الغاوين .

الشعر والاخلاق :

اما الحديث النبوي الاخر الذي قد يفهم منه موقف نقدي قاس ازاء الشعراء عامة والجاهلية خاصة .. فهو قوله عليه الصلاة والسلام . واصفا امرأ القيس بأنه (صاحب

---

(١٣) فهرس البخاري ٧٥ ، دلائل الاعجاز ١٣ ، العمدة ١ / ٣٥ ، وانظر اثر القرآن في الادب العربي ٦ .
(١٤) فهرس البخاري ٣٦٨
(١٥) مسند الامام احمد ٢ / ٨
(١٦) العمدة ٨ ٣٥

لواء الشعراء الى النار)(١٧) . او انه (اشعر الشعراء وقائدهم الى النار)(١٨) وفي رواية اخرى تفصيل اكثر لحال امرىء القيس في الدنيا والاخرة ،

(ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الاخرة خامل فيها. يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار)(١٩)

واذا اكتفينا بالرواية الاولى بكونها واردة في واحد من كتب الصحاح المعتمدة واستبعدنا الروايتين الاخيرتين الواردتين في كتابين ادبيين فأن وصف امرىء القيس يجعل القارىء في حيرة من امره وعجب قد يقودانه الى فكرة خاطئة عن مفهوم الاسلام للشعر ونظرته الى كبار الشعراء . فأمرؤ القيس هذا الشاعر الذي شمخ بشعره بين شعراء الجاهلية والاسلام وقدم عليهم بلا منازع وما تزال قصائده النموذج العالي الفريد للقصيدة العربية التقليدية .. يصفه الرسول الكريم بأنه قائد الشعراء الى النار ؟

وهنا لابد ان نقف وقفة تأمل وتحليل . فالرسول (ص) عربي بذوقه الرفيع وبلاغته التي جعلت من اقواله واحاديثه اعلى نمط ادبي عرفته اللغة العربية بعد القرآن الكريم . فكيف يتجاهل جمال شعر امرىء القيس ورصانته وجزالته . ويحط من شعره وشأنه فيجعله قائد الشعراء الى النار؟ لابد اذن ان يكون نقده لامرىء القيس نابعا من المفهوم الاسلامي للشعر والشعراء . ويكون حكمه منصبا على جوانب معينة من شعر امرىء القيس اعني بها الصور الوصفية الفاحشة في غزله التي تتنافى مع مبادىء الاسلام ودعوته الى العفة والخلق الكريم . وليس المراد به شعر الشاعر عامة او شخصه على الحقيقة . لان الحديث الشريف فيه توجيه اخر لشعراء المسلمين ليسلكوا سبل الخير والخلق القويم في اشعارهم اما من كان على شاكلة امرىء القيس في شعره الماجن او غزله الصريح فيكون مصيره النار . ولا يفهم منه ان امرء القيس هنا حامل لواء الشعراء الى النار على الحقيقة . لانه عاش في الجاهلية . والاسلام ـ كما هو معلوم ـ يجب ماقبله (٢٠) . كما قال الرسول (ص) .

---

(١٧) مسند الامام احمد ٢ / ٢٢٨

(١٨) العمدة ١ / ٢١١

وهكذا يندرج هذا الحديث مع المفهوم الاسلامي للشعر. ويندرج ضمن المبادىء التي دعا اليها الرسول (ص) ووجه المسلمين اليها في حياتهم اليومية ليكون الخير متمثلا في افعالهم واقوالهم .

على اننا نلمح موقفا نقديا من جانب اخر يخص شعر امرؤ القيس . وهو تفضيل امرىء القيس على سائر الشعراء دون تحديد لزمان او مكان فجعله قائدهم – وان كان قائداً مودياً الى النار . وقد علق دعبل الخزاعي تعليقا ، طريفاً ، فهم من خلاله رأى الرسول (ص) في تفضيل شعر امرىء القيس من حيث القوة والجزالة والجمال قائلاً (ولا يقود قوما الا اميرهم)(٣١) .

ومثل هذا يمكن ان يوجه قوله (ص) (من قال في الاسلام شعرا فلسانه هدر)(٣٢) بأن المقصود منه الشعر الفاحش البذيء .

وفي رواية اخرى ، (من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر)(٣٣) لان الهجاءفي طبيعته قذف وافتراء وهو وتعاليم الدين على طرفي نقيض والاستقامة في السلوك والرقة في الحديث من الامور المطلوبة في اخلاق المسلم وقد وصف الرسول (ص) نفسه بأنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعاناً ولا سباباً .(٣٤)

ولا يمكن ان نعقل انكار الرسول (ص) لوجود الظاهرة الشعرية في المجتمع العربي ولا ان يمنح العرب عن قول الشعر وهو الذي يقول ،

(لاتدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين)(٣٥)

وقد قال الخليل بن احمد الفراهيدي ، كان الشعر احب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام .(٣٦)

فالشعر جزء من حياة العرب ووجودهم . ولا يمكن ان يهجروه في اي حال من الاحوال كما لايمكن ان يدعو الرسول (ص) الى مخالفة الطبيعة العربية

---

(٣١) الشعر والشعراء ١/ ٤٥٩ . النظرية النقدية ص ٦٤
(٣٢) لسان العرب مادة (هدر)
(٣٣) العمدة ٢ / ٣٠ وانظر الاسلام والشعر ٢٥
(٣٤) صحيح البخاري ـ الانبياء ٣١٤ . الادب ٥٩ . فهرس البخاري ٣٦٢
(٣٥) العمدة ١ / ٣٠